

ما يقدره عِلم النفس مكانة المرأة في المجتمع

تعمير يوسف الشاروني

ما تزال المرأة - في منتصف القرن العشرين بعد الميلاد - تعاني من آثار تاريخ استعبادها الطويل أهم شيء يتعلق بجوهر انوثتها، وهو حق التصرف في جسدها. فبعض نساء الغرب وأكثرية نساء الشرق تتحكم فيهن ظروف المجتمع الاقتصادية او العقلية الاقطاعية. فمن المسموح به للمرأة في مجتمعنا ان تعتبر - او يعتبر ذوها - جسدها رأس مال يمكنها ان تستغله عن طريق بغاء او زواج طيب او في حياتها الاجتماعية العامة. وبذلك لا يكون الفرق بين البغاء والزواج في كثير من الاحيان سوى ان البغي تأخذ اجرها من عدة رجال وعلى عدة مرات، والمتزوجة تأخذ مرة واحدة من رجل واحد، ولو ان مسألتها لا تقف عند هذا الحد لأنها كثيراً ما تلجأ الى الزنا لاشباع رغباتها التي أبقى ان يحققها لها ما يحيطها من ظروف. وبهذا يصبح الزواج في كثير من الأحيان عملية تجارية كالبغاء سواء بسواء. ذلك لأن الحب وحده هو الذي يقرر اخلاقيته العلاقة بين المرأة والرجل، الحب القائم على اساس من التفاهم العقلي والعاطفي والجسدي. ولا تتم هذا إلا باستقلال المرأة اقتصادياً.

أما البغاء نفسه فقد تطور في مجتمعنا حتى اصبح احدى وسائل كسب العيش، شأنه في ذلك شأن بيع البيض والدجاج والسيارات. وسببه وجود الفقر بين كلا الجنسين، ولهذا تضطر بعض الفتيات الى ان يلجأن الى هذه الحرفة ليأكلن. بعرق أجسادهن، ويلجأ اليهن الشباب من الجنس الآخر لأنها وسيلة للاشباع الجنسي اقل نفقة من الزواج وما يستتبعه الزواج من تكاليف. وتقف الطبقة الوسطى في مجتمعنا موقف الغاضب المتباكي على الأخلاق لأن هذه الحرفة تعطل فرص الزواج على فتياتنا العانسات.

ورغم إننا - فيما يبدو - قد أتحنا الفرص لكثير من النساء في العصر الحاضر، فأصبحن يتعلمن مثلما يتعلم الرجل، واصبحن

(*) راجع « الآداب » العدد الثامن، تاريخ اول آب.

يستغلن في كثير من البلاد مثلما يشتغل الرجل، بل ان بعضهم قد تفوقن فعلاً في بعض ميادين العلوم والسياسة والأدب، فان ظهور هؤلاء كان ظهوراً محدوداً لا يتفق وهذه الفرص الواسعة التي حصلت عليها المرأة. وهنا نقول ان مجرد تصورنا بان المشاركة في العلوم والمخترعات والآداب هو وحده العبقريه إنما هو تصور خافه الرجل لأن هذه هي ميادينه، ولو تأملنا مهمة المرأة الرئيسية في الحياة والتي أعدتها لها الطبيعة لوجدنا ان عملية حمل الطفل وولادته ورضاعته وتربيته وتنشئته تنشئة صالحة والعناية به وحمايته من اخطار الموت التي يتعرض لها في هذه الطفولة المبكرة، لا تقل ابدأ في العبقريه عن اي عمل علمي او ادبي. ولكن امور الولادة والطفولة ليست من مهام الرجل فهي لا تدخل اذن في قاموس العبقريه الذي ألقه الرجل. والواقع ان المرأة التي تستطيع ان تكون اليوم زوجاً وأماً وطبيبة وعضواً في البرلمان في وقت واحد لتستوعي انتباهنا اكثر مما يستوعبه عالم او اديب كبير. ودليلنا على ذلك اننا كثيراً ما نجد امثال هؤلاء العلماء او الادباء يتمتعون عن الزواج بدعوى التفرغ لأعمالهم، ويعلمون انهم يكتبون بما يتبنونه من اعمال علمية او ادبية، فما بالناس إذا كنا امام امرأة متزوجة ذات اطفال ورغم ذلك فهي تفوق في عالم الادب والعلم؟ اذن فلنترك التصور الذي خلقه الرجل عن العبقريه ولنعرّف بان في مهمة المرأة من العبقريه ما في مهمة الرجل تماماً.

ومن ناحية اخرى نجد ان الحرية المعطاة للمرأة اليوم ما تزال ناقصة، ان لم تكن مصطنعة في كثير من الاحيان، لان مجتمعنا ما يزال في اساسه مجتمعاً يقوده وبوجهه الرجال. والمرأة العانس في حضارتنا تظل شبه خادمة في منزل والدها أو اخيها أو اختها المتزوجة ولا تصبح سيده بيتها إلا إذا قبلت سيادة رجل عليها. ورغم فتح ابواب العمل المختلفة امام المرأة، فلا تزال تعتبر الزواج - كوظيفة رئيسية - هو « أشرف » وضع لها. ويملاؤ الوالدان رأس ابنتها بفكرة الزواج حتى لتتري

ان كل شيء في حياتها - فيما عدا الزواج - شيء عرض ، فلا تحاول التخصص والتفوق في دراساتها ، وان التحقت بعمل اعتبرته شيئاً موقوتاً في حياتها بل نظرت اليه احياناً نظرتها الى سخرة منكورة تتطلع الى يوم الخلاص منه وهو يوم الزواج ؛ فالعصر الحاضر يجبر النساء على العمل ثم يلوح لمن بجنة يرين فيها فقط التعبير عن دورهن النسائي الذي لم يارسن غيره لعصور طويلة خلت . ان الحماية الاقتصادية التي يشمل بها الرجل المرأة ومركزه الاجتماعي ، ومركز المرأة المتزوجة المحترم ، والاجور القليلة التي تأخذها ووضعها المحقر كعانس ، كل ذلك يدفعها الى البحث عن الزوج كسيد لا كزميل ، ولا يستثنى من ذلك إلا عدد قليل قاوم بعقريتهن تقاليد البيئة . ولهذا فهناك الآن نضال مستمر من جانب الرجل للاحتفاظ بما كان له من سلطان ، يقابله تمرد من جانب المرأة لتثبث الرجل بهذه السيطرة ولما كان الجنسان محتطين ببعضهما اشد الاختلاط فمن السهل ان ندرك كيف ان هذه المشادة الدائمة تؤدي الى شذوذ نفسي بل واضراب جنسي مما يزعج الجميع .

وليس من الضروري ان يكون فهم الطفل لهذه العلاقات فهماً عميقاً ، ولكن لا بد لنا من الاعتراف بان حياته العاطفية تتأثر بذلك الى حد بعيد . فالطفل يغضب إذا طلبت منه ان يرتدي ملابس فتاة ، بينما العكس لا يحدث نفس هذا الاثر . ودخول الوالد وخزوجه الغامضان يثيران اهتمام الطفل اكثر مما يثيره مكوث الام الدائم في البيت ، وسرعان ما يدرك الطفل الدور الرئيسي الذي يقوم به الوالد ، وهو دور يبدو فيه دائماً بمظهر القائد . فالجميع يطيعون اوامره وأمه تسأله النصيحة ، وحتى في حالة عدم وجود هذا الوضع فان الاطفال تتكون لديهم فكرة عن سيطرة الوالد لان حمل الاسرة يبدو ملقى على عاتقه . وكثيراً ما تهدد الام طفلها قائلة « حين يأتي ابوك سأخبره بما فعلت » فمثل هذه المرأة تعطي طفلها فكرة عن ضعفها هي وسيطرة رجلها . وتسمع الفتاة دائماً انها أقل من الأولاد ، فليس من العجيب اذن ان تؤمن ايماناً خالصاً بنقصها بل العجيب ألا تفعل ذلك ، وهكذا تفقد الثقة من نفسها ولا يعود لديها امل في القيام بعمل له اهمية في الحياة .

وقد برهنت اختبارات الذكاء على ان فريقاً معيناً من الفتيات تختلف اعمارهن ما بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة كانت موهبتهن ومقدرتهن أوضح مما لدى الفریق الاخرى ، ومن بينها

فرق الاولاد . ودلّت البحوث فيما بعد على ان هؤلاء الفتيات كن من اسر فيها الام هي التي تكتسب وحدها العيش أو تشارك على الاقل بنصيب كبير فيه . ومعنى هذا ان هؤلاء الفتيات كن في وضع منزلي خال من الاعتقاد بعجز المرأة . فقد كان باستطاعتهم ان يرين كيف ان عمل الام له جزاؤه المادي الواضح ، ونتيجة لهذا نشأت انفسهن في حرية اكثر واستقلال اكثر . وفي اختبارات اخرى تبين ان الاولاد يظهرون مواهبهم في دروس معينة كالحساب ، بينما اظهرت الفتيات موهبة اكثر في دروس اخرى كاللغات . وتفسير ذلك ان كلا الفريقين يظهر موهبة اعظم في الدروس التي يعلم افراده انها ستؤهلهم للحياة فيما بعد .

ومعنى ذلك اننا يجب ان لا نأخذ النتائج الحالية لنستدل على ضعف أحد الجنسين عقلياً عن الآخر ، فاذا اتينا بطفل وظللنا نوحى له بانه كسلان وغبي ولا يستطيع ان يفعل شيئاً ثم امتحناه فوجدناه راسباً ، فان السبب لا يرجع اليه بل الينا نحن الذين أوحينا بضعفه ونقصه . وما اسهل ان تفقد الفتاة ثقها في نفسها في مجتمعنا . إننا علينا ان ننشئ الجميع تنشئة صالحة واحدة منذ الطفولة ، ثم نراقب النتائج فيما بعد ، وهذا ما لم يحدث في كثير من بقاع الارض إلا في نطاق ضيق .

تقول السيدة « ادب سبر سكيل » وزيرة التأمين البريطانية في وزارة العمال البريطانية السابقة في حديث لها المندوبة إحدى المجلات المصرية اثناء زيارتها لمصر : « ان الرجال ليسوا انانيين بحال من الاحوال ، ولكنكن تدلوهم كثيراً ، فاعتادوا ان يكونوا « المحور » الوحيد لحياتكن . ولست أؤمهم ، فالرجل يميل بطبعه الى التذليل ، وواجب المرأة ان توفيه حقه من هذه الناحية ، لكن هذا لا يمنعها من خدمة بلادها . ولا ننس ان المجتمعات القوية لا تتأتى ما لم تشترك المرأة في كل جهود الرجل . وفي عتق المرأة امانة اخرى تضمن صلاحية الاجيال القادمة ، وهي ان تربي اولادها ذكوراً وإناثاً على العدالة التامة ، والمساواة المطلقة ، فلا يصح مثلاً ان تقوم الفتاة بعمل بيتي ولا يقوم الصبي بنفس العمل لان اشتراكها في الواجبات المنزلية والاجتماعية يعلمها ألا فارق بين الرجل والمرأة . اذا كان لكن اولاد ذكور فافعلن معهم هكذا تحذ من قضية بلادكن خدمة جليلة . وقد حققت ذلك ولست بالتجربة فوائده الهمة ، فقد عودت ابني من الصغر على القيام بكل

فصول

كان ذا ليلة صيف ..

*

ليس غير الليل يدري سرنا ..
يدري أننا ...

ها هنا ..

سَبَّحَ الكونُ باسمنا ..
ومشى الليلُ بنا ..

موهنا ..

موهنا ..

وافترقنا .. كي أراها بعد حين ..
ها هنا ..

*

ومضى الليل .. وجاء ..
وتوالى .. في ابتداء .. وانتهاء ..

لم تعد .. من همست ذات مساء ..
« إلى اللقاء » ..

وخبت شعلة المصيف ..

وآذن الصيفُ بالحسوف ..
قلتُ : قد تأتي ..

إذا يأتي الخريف ..

*

وأتى الخريف ..
قلتُ : ألقاها .. وفي الصدر لهيف ..

إن تكنْ تدبُّلُ أوراقُ الخريف ..
قلَّها منْ خَفَقِه .. خَيْرُ رفيف ..

ولها منْ حُبِّه .. ظلٌّ وريف ..
ومضى الخريفُ ..

بلا رجاء ..

قلتُ : قد تأتي ..
إذا يأتي الشتاء ..

*

وأتى الشتاء ..
قلتُ : ألقاها .. على متنِ الضياء ..

عندما تخطُرُ في الأفق .. ذُكاه ..
زَفَّها الصُّبحُ لاحتضانِ الفضاء ..

مُعلِنًا .. في ركنيها عرسَ السماء ..
ومضى الشتاء ..

بلا رجوع ..
قلتُ : قد تأتي ..

إذا يأتي الربيع ..

*

وأتى الربيع ..
قلتُ : ألقاها .. على دربِ خليع ..

تتعاقدُ الأزهارُ فيه .. والفروع ..
في الربيع ..

تصحو المشاعر .. في الضلوع ..
وتفرح الشمسُ بالطلوع ..

وتصدح الطير في الربوع ..

ويجلم العطر بالذبوع ..
ويرفل النيل في القلوع ..

ويسهر الليلُ .. في الشموع ..
في الربيع ..

ما أحوج القلب الولوع ..
للسبع ..

في الربيع ..
ومضى الربيع ..

*

كان ذا ليلة صيف ..
القاهرة محمد محمود عماد

ثقبلاً في مثل هذه الظروف الاقتصادية العسرة التي تسود العالم .. يجب ان يكون للمرأة دخل خاص يحميها شر تقلبات الزمن ، ويمكنها من المساهمة في رفاهية الاسرة ، ويشعرها انها انسان كريم له مكانته واستقلاله ، ولا تنسى ان هناك عاملاً نفسياً آخر ، فالرجل إذا عرف بقدرة زوجته على إعالة نفسها والاستغناء عنه ازداد قرباً منها وتشبهاً بها . ونحن نضيف قائلين : ويكف عن معاملتها معاملة السيد لحادمه ليعاملها معاملة الزميل لزميله حيث ستساويه ثقافة واهتماماً بنفس الامور التي تستتبع كل من يقوم بعمل خارجي .

ويقول الاستاذ ابراهيم المصري في كتابه « مدرسة الحب

الاعمال التي تقوم بها اخته ، وعندما كنا في بعض الظروف نفترق الى الخدم ، كان يغسل ثيابه وصحونه بنفسه ، وكان ينظف غرفته ويرتب فراشه . ولم تسيء تربيتي الى رجولته ، بل علمته الاعتماد على النفس وزادت شخصيته قوة .

ولما سألتها المندوبة عن اقوى العوامل في تحرير المرأة ، اجابت باسمه : « انه الاستقلال الاقتصادي ، فاعتماد النساء على الرجال في طعامهن وكسائهن يجرهن الاحساس بالمساواة ، ويعطي الرجل سلطات واسعة على المرأة ، ولا يصح ان تعيش النساء عالة على ازواجهن او آباءهن او اهلن وإلا اصبحن عبئاً

والزواج « بان الزعم بان تحرر الفتاة بواسطة العمل وزوال الفوارق الاجتماعية بين الجنسين واختلاطهما في شتى ميادين الحياة إنما يجرد الفتاة من جمالها ويخمد عاطفة الحب ويقضي في النهاية على نظام الزواج هو زعم ينكره الواقع . فانصال الفتاة بالرجل في محيط العمل يولد بينها ضرباً من الصداقة الصريحة ، ويتيح للفتاة فهم الشاب وتقديره إذا استحق التقدير كما يدفع الشاب الى احترامها . ثم ان العمل يُكسب الفتاة إحساساً عميقاً بالكرامة والعزة ، فتقبل على الزواج مختارة لا مكرهة ، وتحاول ان تبني حياتها الزوجية على الحب لا على المصلحة وعلى التفاهم المشترك لا على المال ، ما دامت تشعر انها لم تضطر الى الزواج اضطراراً ، وانها اختارته بحض إرادتها ، وانها ليست عبدة للرجل او سلعة ، وفي مقدورها - اذا تركت العمل - ان تعود اليه إذا حلت بها كارثة او اذا قدر لها ألا تحقّق في الاسرة ذلك التفاهم الخلفي والعاطفي المنشود فلا تصبح عالقة على ابيها او اخيها او اهل زوجها هي واطفالها . ان الفتاة التي تعمل تشعر بغريزتها انها يجب آخر الامر ان تتزوج ، وانها لو تهاونت في الحرص على اخلاقها وحياتها وعفافها فقد يكون من المستحيل عليها ان تجد رجلاً يحبها ويقدرها ويرضى الزواج بها .

ان هؤلاء الذين يقسمون الناس الى قسمين : عالم المرأة وعالم الرجل ، ويجعلون السيطرة للواحد على الآخر ، هم بعينهم الذين يقسمون الناس الى اجناس ويجعلون السيطرة لاحدها ، وهم الذين يقسمون الناس الى طبقات ويجعلون السيطرة لاحدها ، فهي عقلية تفكر بنفس النمط في جميع الحالات .

يقول رفاعه بك الطهطاوي « وليمكن للمرأة عند اقتضاء الضرورة ان تقوم بالاشغال والاعمال التي يقوم بها الرجال . فان فراغ أيديهن من العمل يشغل ألسنتهن بالباطيل وقلوبهن بالاهواء وافعال الاقاول . فالعمل يصون المرأة بما لا يليق ويقرّبها من الفضيلة ، واذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال فهي مذمة عظيمة في حق النساء . »

ان تحرير المرأة بهم الرجل بقدر ما بهم المرأة ، لان الرجل الذي يطالب بهذه الحرية يحس ان سعادته لا تتحقق إلا مع المرأة المحررة ، شأنه في ذلك شأن الرجعي الذي يحس ان سعادته لا تتحقق إلا مع المرأة المستعبدة . نعم ان الرجل الذي يطالب بتحرير المرأة يحس ان سعادته لا تتحقق إلا بهذه الحرية ، سعادته العقلية والعاطفية بل والجنسية . وإذا كان يختار اصدقاءه

على اساس الاتفاق في المشارب والاتجاهات فأولى به ان يحقق ذلك مع الانسان الذي سيشاركه ليله ونهاره ، رغم ما يكلفه ذلك من مشقة في مجتمعا الشرقي حيث للنساء توجيه منفصل عن توجيه الرجال ، وحيث ما تزال الهوة قائمة بين الجنسين ، وحيث ثمة اغراء شديد بان يظل الرجل الرأس وان تظل المرأة الجسد .

ونحن لا نأمل من وراء هذه الكلمات ان تتحرر المرأة او ان تكون لها فرص متكافئة مع الرجل ، بل اننا نعلم ان طبيعة الاشياء ستؤدي حتما الى ذلك ، إنما نحن لا نعكس إلا تطوراً حادناً بالفعل ، ولا نحاول إلا ان نقوم بعملية وعي دافعة مبيّنين طبائع الاشياء وضرورتها لان الحرية هي معرفة الضرورة والخضوع لها * . القاهرة يوسف الشاروني

(* هذا البحث والبحث الذي سبقه مجرد توجيه للمشكلة ، اما من شاء الاطلاع والتوسع في الموضوع فهناك مراجع كثيرة نثت هنا تلك التي اطعنا عليها مع العلم بأن كل مرجع من هذه المراجع به مجموعة اخرى من الكتب التي يشير اليها وهكذا .

John Langdon Davis : A short history of Women
وبعرض للمشكلة من الوجهة التاريخية ، العامة ، وهو موجود في مجموعة

Thinker's Library
J. Engels : The origin of the family and the individual property

وبعرض للمشكلة من وجهة النظر الاشتراكية وهو عن اصل الماني وله
ترجمات الى مختلف اللغات .

Simone de Beauvoir : Le deuxième sexe
وهو في جزئين : الاول يعرض المشكلة موضوعياً ، والثاني يعرضها من وجهة النظر الوجودية ، فؤلفته زوجة جان بول سارتر .
اما من ناحية علم النفس فهناك كتب كثيرة اهمها :

Helene Deutsch : Psychology of woman
وهو في جزئين : الاول يتعلق بالفتاة ، والثاني بالمرأة . وقد وعدت المؤلفة في المقدمة انها تنوي اخراج جزء ثالث تخصصه لوضع المرأة الاجتماعي ولكنه حتى الآن لم يظهر على ما أعلم .

كما يمكن قراءة فصل في كتاب لألفرد أدلر بعنوان Sex من كتابه Understanding human nature وفصل آخر بعنوان المرأة في كتاب لسيجموند فرويد Introductory lectures on Psycho - Analysis وقد ترجم هذا الفصل الى العربية مع مقدمة في كتاب مستقل بعنوان « سيكولوجية المرأة » الدكتور محمد مختار صدي .

كذلك يمكن قراءة الفصل الثامن من كتاب Oswald Schwarz :

The psychology of sex وهو في مجموعة Pellican رقم 194 .
اما في عالم الادب فقد خصصت فرجينيا وولف كتابين من امتع كتبها لهذا الموضوع وهما : Arrom of one's own
Virginia Woolfe : Three Guineas والكتاب الاخير يبحث في علاقة مشكلة المرأة بمشكلة السلام العالمي .